الشـــــــــــــوك

• أحمد مجدي همام*

وقد يَجْمع اللهُ الشتيتيْن بعدما   يظنّان كلَّ الظنِّ ألاّ تلاقيَا

هذا هو البيت الذي وقر في نفسي بعد أن رأيتُ أيّوب ناصر يقف أمامي بشحمه ولحمه. وأين؟ هنا في القاهرة!

ـ أيّوب!

قالها صاحبُنا عمر وهو يكاد لا يصدّق عينيه.

كنّا قد خرجنا لتوّنا من الجامعة، أنا وصديقي جمال وعمر. جمال مواطن سودانيّ يقيم في القاهرة ويَدْرس معي الفلسفة. أما عمر، صديقنا الفلسطينيّ، فيدرس الصحافة أيضًا في جامعة القاهرة.

خرجنا من الجامعة بعد يوم دراسيّ قصير. كان برنامجُنا ذلك اليوم أن نلتقي أنا وجمال بعمر الساعة الواحدة ظهرًا، ومن ثم نذهب إلى مكتبة مدبولي بميدان طلعت حرب مشيًا.

انطلقنا، نتمشى، نثرثر، ونتسلّى باللبّ والفول السودانيّ. كان جمال يتحدث معي حينها عن رواية **وليمة لأعشاب البحر**، وكيف استطاع أن يقرأها بعدما التقى بناشر سوريّ يبيعها سرًا بأسعار مضاعفة. وأما عمر فكان يردِّد أبياتًا من قصيدة «مديح الظل العالي» لمحمود درويش، عندما لاحظتُ أنّ حركة فكه تتباطأ وهو يتابع أحد الواقفين على جسر، مضيِّقًا عينيْه في تركيز:

ـ مازِ.. لْـ.. تُ أَحْـ.. يا..

ثم بصوتٍ صادقٍ متفجّر:

ـ ألف شكرٍ للمصادفةِ السعيدة!

وأردف بصوت عالٍ:

ـ أيّوب!

لم أكن قد استوعبتُ ما يجري بعد، بينما التفت الشابُّ الواقفُ ناحيةَ الصوت، فنقل بصرَه بيننا يتفحّصنا، وكذلك فعلتُ أنا وجمال، في الوقت الذي اندفع فيه عمر إلى الفتى ليحتضنه وهو ينظر لي بطرف عينه ويقول:

ـ أيّوب العراقيّ، يا أحمد!

وبعد أن ضيّق الآخر ـ أيّوب ـ عينيْه وهو يُمْعن النظرَ في عمر، اعتلت أماراتُ السعادة وجهَه وهتف:

ـ عمر أبو الشباب!

واندفع هو الآخر فاتحًا ذراعيْه ليحتضن عمر. وكذا فعلتُ أنا بعدما تذكرتُ أيّوب، صديقي أنا وعمرَ عندما كنّا في دولة الإمارات العربية نَدْرس في المرحلتين الإعدادية والثانوية متجاورين في الفصل الدراسي نفسه، عدتُ أنا بعدها إلى مصر لأُكمل دراستي الجامعية، واختار عمر مصْرَ لتكون وطنَه الجديدَ ومكانَ دراسته لصعوبة عودته إلى فلسطين الرازحة تحت الاحتلال الإسرائيليّ، بينما عاد أيّوب إلى بغداد ليُكْمل دراستَه فيها، ومنذ ذاك الحين انقطعتْ بيننا الاتصالاتُ.

قررنا إلغاء مشوارنا إلى مكتبة مدبولي، وعرجنا على أقرب مقهًى للجلوس، فلم نجد سوى KFC فرع المنيل. دخلنا وجلسنا. قال جمال مرحِّبًا بأيّوب:

ـ عليّ الليلة كلها.

ردّ أيّوب بلهجته العراقية المميّزة:

ـ لويش؟ ماكو داعي، خلِّ عنكَ.

---

* ـ كاتب مصريّ.

ـ هه!؟

هكذا كان ردُّ جمال على اللهجة العراقية التي لم يفهمها، فابتسم عمر:

ـ طبعًا حبيبي، ما راح تشوف أغرب من اللهجة العراقية. ليست بالخليجية، ولا هي شامية! الشتات بعينه.

ـ بمناسبة الشتات، ما الذي رماك على مصر؟ ومتى جئتَ ومع من؟

لكنّ أيّوب تجاهل سؤالي وبادر هو الآخر بسؤالٍ موجّهٍ إلى عمر:

ـ لِمَ تقول هذا عن العراق؟

تولّيتُ الرد:

ـ أَوَتحتاج هذه النقطة توضيحًا؟ العراق يا حبيبي بها ألف طائفة وطائفة! شيعة وسنة أكراد وتركمان وأشوريون وكلدانيون..إلخ. أحيانًا أشعر أنها عبارة عن خطّ فاصل بين ألف حضارة.. فرس وترك وعرب، ذات ولاءات متعددة. الضياع يا بنيّ والشتات، بلا قومية محددة.

ـ بل هي العربية.

ـ ولكنْ...

قاطعني عمر قبل أن أردّ على أيّوب، وبادره بالسؤال:

ـ قل لي أنت كيف كنت تعيش؟ ولِمَ جئتَ إلى مصر؟ أتصدِّق؟ لقد خمّنتُ أنك عراقيّ من شكلك قبل أن أتأكّد من كونك أيّوب!

افترّ فمُ أيّوب عن ابتسامة خافتة وقال بصيغةِ تعجّب:

ـ كيف؟

ـ لأنّ العراقيّ دائمًا تَشْعر أنّ وجهه متجهِّم، لا لطبعٍ فيه، بل لأنّه دائمًا يبدو كالغريب. أنتَ مثلاً عشتَ خارج العراق أكثر من الوقت الذي قضيتَه داخله. صح، الغربة تقتل. سَلْ جمال، وهو لا يَعْرفك مسبقًا، يؤكّدْ لك صدقَ كلامي.

ـ يمكن!

وتابع عمر وَصْلَةَ ثرثرته:

ـ لم تخبرْنا حقًا سببَ حلولك ضيفًا على القاهرة؟

ـ لن تصبح ضيافة، بل هي إقامة.

قلت:

ـ تشرّفنا.

ـ تسْلم.

استمرّ عمر في موجة أسئلته:

ـ حقًا ستقيم بالقاهرة؟ لِمَ؟ عفوًا لا أقصد، أنتَ في بلدك طبعًا، لكنْ أعني ما الذي دفعكَ إلى مغادرة العراق؟

أخذ أيّوب نفسًا طويلاً، ثم قال:

ـ كنتُ قد عدتُ لبغداد في العام الذي سافرتمُ أنتم فيه إلى مصر، ودرستُ في جامعتها ثلاثَ سنوات، في كلية العلوم قسم الجيولوجيا. لكنْ من حوالى أكثر من شهر، تقريبًا من شهر ونصف، قال لي والدي إنّنا مسافرون إلى مصر قبل أن يضربنا الأميركان. و جئتُ من حوالى..

قاطعه جمال قائلاً:

ـ هارب يعني؟

أَطْرق أيّوب ناظرًا في الطاولة أمامه وعلى شفته شبحُ ابتسامةِ خجلٍ أو ندمٍ، بينما نظر عمر إلى جمال عاضًا على شفته السفلى:

ـ لا يا جمال، أيُّ هرب تتكلّم عنه؟ (ثم محوّلاً دفّةَ الحديث) قلْ لي يا أيّوب، أين تسكن الآن؟ وهل أهلك معك؟ رعد، والوالدة، وأختك الصغيرة؟

ـ ساكن بشارع الهرم. أمي ـ الله يرحمها ـ توفّيتْ بعد أن عدنا إلى العراق بشهرين.

قاطعناه جميعًا:

ـ اللّه يرحمها.

ـ وجئتُ أنا وأبي وحنين الصغيرة. رعد لم يرضَ أن يترك العراق. قال بالحرف الواحد لأبي: «اهربوا أنتم. أنا سأبقى ببغداد. أموت شهيدًا أو ألقاكم على خير بعد الضربة!»

علّق جمال قائلاً:

ـ واللّه إنّه بطل.

ـ واللّه إنّه مجنون. أيُّ بطولة في بقائه وحده في دولةٍ سيتمّ تسويتُها بالأرض؟ هو، يعني، مَنْ سيتولّى طردَ الأميركان؟ واضح أنه عايش في عصر «واللّه زمان يا سلاحي!» نحن لم تُكْسر عنقُنا إلا بسبب الشعارات!

وضح الانفعالُ على عمر. فأردتُ تغييرَ مجرى الحديث، هربًا من سيرة الحربِ والضربِ والأخِ الشهيد. فقلتُ لأيّوب:

ـ وحنين، كم عمرُها الآن؟

ـ ٦ سنوات.

جاءت الطلبات، فأكلنا وتبادلنا الحوار، وأصرّ جمال على دفع الحساب. ثم انصرفنا إلى أقرب مقهى، وطلبنا القهوةَ كالعادة. أَخرج أيّوب ـ كدأبه ـ تلك النوعيةَ من السجائر الرخيصة المصنَّعة محليًا، والتي لا أدري كيف عرف طريقَها بسرعة هكذا. كان قد بدأ تدخينَها مذ كنّا في المرحلة الإعدادية عندما كان يَسْرقها من سجائر والده، قبل أن يعرف طريقَ الرخيص المحليّ الصنع في المرحلة الثانوية، وذلك لقناعته بأنّ السجائر الغالية الأميركية وغيرَها رؤوسُ أموالٍ صغيرة. وله مقولة كنّا دائمًا نردّدها ونضحك ونحن جالسون تحت ظل شجرة في حوش بيت أبي عمر في العين: «إذا كان شربُ السجائر حرامًا، فشربُ المارلبورو من الكبائر!»

كان أيّوب هو الوحيد فينا المتوسِّع في قراءاته بين الأدب والسياسة، بينما اقتصرنا أنا وعمر على الأدب فقط. وأطلقنا عليه لقبَ ماركس، فعبس وقال:

ـ لست شيوعيًا.

ـ ولا اشتراكيًا؟

ـ كلاهما واحد يا ذكي.

ـ إذن، فأنت يساري.

* * *

احتسينا قهوتنا، واحتسينا فيما احتسينا جراحًا كثيرة.

ـ وهكذا سيَفْقد السودانُ نصفَه الجنوبيّ. ومعه سيَفْقد النفطَ، بدعم أميركا للجنوبيين. يعني مخطط Made in USA!

كان ذلك خلاصةَ ما قاله جمال عن حركة التمرُّد الجنوبية، ثم أردف.

ـ وهذه ليست آخر حركة انفصالية عربية. ففي العراق هناك الأكراد.

قلتُ وأنا في حالة استرخاء مضطجعًا على ظهري وأنا أنفث دخانَ السيجارة:

ـ يالله! عليه العوض في السودان والعراق.

علّق أيّوب قائلاً:

ـ نحن السابقون، وأنتم اللاحقون.

اعتدلتُ في جلستي متصنِّعًا الجدية:

ـ يا حبيبي نحن الفراعنة. يعني سبعة آلاف سنة حضارة، ولا يَقْدر أحد على المساس بنا.

ردّ عمر:

ـ ولا حتى الأربع ملايين خنزير، ودولة كريهة عمرُها لم يتعدَّ في حينها ٢٠ عامًا؟ والنتيجة ضياع فلسطين، ومن يومها لم نستطع النهوض.

لويتُ شفتي امتعاضًا ثم قلت:

ـ خلاص يا سيدي، نقول عليه العوض في فلسطين بالمرة!

ردّ بعصبية هي تيمةُ سلوكه دائمًا:

ـ يا ابني افهمْ، أنتم التالون.

ـ ولا تزعل! عليه العوض في مصر أيضًا!

ويبدو أنّ لعبة العوض قد أَعْجبتْ جمال فقال:

ـ والحركة الانفصالية في المغرب، وجبهة البوليساريو؟

ـ عليه العوض في المغرب العربيّ كلّه! مبسوط؟

فسأل عمر:

ـ لمّا عليه العوض في كلّ هؤلاء، فمَنِ الذي لن نستعوض الله فيه؟

ـ صح حبيبي. هكذا أنتَ أظلمتَ الدنيا! ألستَ مؤمنًا بنظرية المؤامرة؟ كيف لنا إذن أن نَهْزم الأعداء؟

ختم أيّوب جملته ناظرًا إليّ، وكأنّه وَرَّطني في نقاش من نقاشات عهدنا الغابر. كان واضحًا أنّهما ـ عمر وأيّوب ـ يتربَّصان بي منذ البداية ويريدان الوصول إلى هذه النقطة. ولاح في الأفق شبحُ مناقشة ساخنة، فقلت:

ـ حبيبي، ألا تُجيدون استقراءَ التاريخ؟ يمكن أن تعتبر ما سأقوله كلامَ إنشاء وخُطَب، ولكنِّي مقتنع به تمامًا. دعني أوضحْ لك. لازم العرب أن يتّحدوا. وتذكَّرْ معي أنّه ليس هناك نصر تاريخيّ ومحوريّ في حياة العرب والمسلمين إلاّ وتمّ عن طريق وحدة مصر والشام. صلاح الدين وحّدهما في حطّين وانتصر على الصليبيين واستردّ بيتَ المقدس الذي هو ما نصبو إليه الآن. هذا واحد. اثنان، قطز فعلها كذلك ولَمَّ شملَ القوتين وانتصر بهما على التتار والمغول. الرئيس السادات ـ الله يرحمه ـ وحّد الجبهتين أيضًا، وحقَّقْنا انتصار ٦ أكتوبر. معي؟ إذن فتوحيد تينك الجبهتين هو لبّ الأمر. الله يرحمه الرئيس جمال عبد الناصر فطن لفكرة الوحدة، فكان أولَ مَنْ حاول تطبيقَ القومية العربية، ووحَّد مصر والشام، ولكنْ للأسف وحَّدهما في إطار القومية الاشتراكية العربية، وكانت هذه غلطته... على عكس قطز وصلاح الدين اللذيْن كان هدفهما قبل كلّ شيء هو تحرير القدس بوازع دينيّ قبل أن يكون الوازع اشتراكيًا أو أيّ شيء آخر.

فرك أيّوب ذقنَه وقال:

ـ والله كلام معقول يا أبو حميد. العرب عمرهم ما توحّدوا إلا وكان الدينُ نواةَ وحدتهم. حتى سيّدنا محمد، عليه الصلاة والسلام، هو الوحيد الذي جَمَعَ قبائل العرب المتناحرة وحوَّلها بعون الله إلى أكبر قوة في المنطقة. كان جمعُه للعرب على الدين قبل أيّ شيء آخر.

ـ طيب والله خير، يعني أنت عارف أنّ الشيوعية كلام فارغ؟

ـ والله يا أحمد مؤخرًا فقط. على الأقل لم نجنِ ثمارَها.

قالها خجلاً ثم تساءل:

ـ يعني القومية العربية من منطلق دينيّ هي الحلّ؟

ـ في رأيي على الأقلّ.

وأضاف جمال:

ـ طبعًا هي الصحّ. تفتكر لِمَ فشلتْ كلُّ المحاولات والنظريات القومية من أيام ساطع الحصري وعفلق والكواكبي وحركة القوميين العرب وجمعية العروة الوثقى ببيروت وحتى عهد ناصر، الله يرحمه؟

ولم ينتظر إجابةَ أيٍّ منّا، فردَّ على نفسه قائلاً:

ـ طبعًا لإغفالهم العنصرَ الدينيّ.

قال عمر بعصبية هي سمةٌ أغلب أحاديثه:

ـ الغريب أننا ٣٠٠ مليون تقريبًا، وقرأتُ منذ أيام أنّ رصيد العرب في الخارج تقريبًا ٢٤٠٠ مليار دولار، ورغم كلّ هذا نظلّ الأفقرَ والأكثرَ جهلاً! غريبة هذه المعادلة. معنا أموال كافية لنكون في صدارة الأمم، ورغم ذلك نحن نكرة، بل نحن دون النكرة! تفتكر الخطأ فينا؟ أين يكمن الخطأ؟

كان صوته يختنق. نظر إلى أيّوب وقال:

ـ أنت يا أيّوب صحيح مشرّد، عفوًا على الكلمة، لكنْ تأكّدْ أنّ العرب كلهم أيّوب. أنا أقيم في غير بلدي: حياتي بين القاهرة وبيروت حيث يقيم أهلي. وكذلك جمال. حتى أحمد غادر هذا الوطن في يوم من الأيام. نحن بدو رحّل، لكنْ بشكل قسريّ. حياتنا بين الوطن والمنفى شتاء دائم، أمطار وثلوج ومعاطف وحقائب سفر، بلا دفء. فمن المخطئ؟

ثم مع زفرة أسى وصوتٍ مكتوم ودمعةٍ هائمة في عينه:

ـ الله يأخذهم. قوموا نغادرْ ونقف قليلاً على النيل.

حاسبتُ عن مشروباتنا ونهضنا جميعًا.

خرجنا. تمشينا على النيل. تبادلنا العناوين مع أيّوب وأرقام الهاتف، ودعوته إلى العشاء في منزلي هو الأصدقاء يومَ الخميس القادم.

* * *

جاء الأصحاب في الموعد. رحّب أهلي بأيّوب أيّما ترحيب، وتناولنا العشاء، ومن ثم جلسنا نتابع قناةَ العراق الفضائية. كان بها استعراضات عسكرية، ونشرة إخبارية صرّح فيها أحدُ المسؤولين أنّ العراق قادر على ردع المعتدين. نظرنا بعضنا إلى بعض بصمت. كادت تُفْلت من أيّوب ضحكةٌ لها طعمٌ مرّ وهو يقول:

ـ ترى، أكان صدقًا ما تتناقل الشفاهُ؟ أم كان صدقًا ما يقوله المذيعُ؟

راقتني الجملة كثيرًا، وأخبرْنا أيّوب أنّه بيتُ شعرٍ لأمل دنقل. ذكّرني كلامُ المذيع ببعض أبيات نزار:

"رأيتُ جيوشًا... ولا مِنْ جيوشْ.

رأيت فتوحًا... ولا مِنْ فتوحْ.

وتابعتُ كلَّ الحروبِ على شاشة التلفزةْ.

فقتلى على شاشة التلفزةْ..

وجرحى على شاشة التلفزةْ..

ونصرٌ من الله يأتي إلينا... على شاشة التلفزة.»

غير أنّي لم أشأ أن أنكأَ الجرح وأسكبَ فيه أرطالَ ملح. ولم يلبث أيّوب أن نهض مستأذِنًا، هو والأصدقاء.

◆ ◆ ◆

في الواحدة فجرًا اتصل بي أيّوب، وقال لي إنّه سيسافر الأسبوعَ القادم إلى ألمانيا. فقد استطاع والدُه الحصولَ على فيزا زيارة، وهناك في المطار سيقدِّمون طلبَ لجوء سياسيّ!

دهشتُ وسألتُه إنْ كان لا يودّ الإقامة في مصر؟ فردّ بحزن:

ـ أما سمعتَ البيّاتي وهو يقول: «نحن مِنْ منفًى إلى منفًى... ومن باب لباب... نذوي كما تذوي... الزنابقُ في التراب؟»

ثم أضاف بنبرةٍ وشى خفوتُها وضعفُ نبراتها بتسليمِ مَنْ وَجَدَ نفسَه أمام أمرٍ واقعٍ لا محالة:

ـ المنفى وطنُ العراقيّ، قدرُه ومصيرُه. ومَنْ لم يغتربْ من العراقيين فليس بعراقيّ.

القاهرة